عنوان البحث : التعايشُ اللغويُّ في العراقِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :

فالعراقُ من البلدانِ التي تتعددُ فيها القومياتُ والأعراقُ والثقافاتُ ، ومردُّ ذلك جذورُه الموغلة في القدم ، إذ تعاقبت على أرضِه ممالكٌ وحضاراتٌ عدَّةٌ لكل منها تكوينها الثقافي ، فتارة يكون تكوينا دينيا ، وتارة أخرى يكون تكوينا مدنيّا ، زدْ على ذلك حدوده الجغرافية فهو يحاذي دولتين أجنبيتين ، وهاتان الدولتان تتعدد فيهما القوميات ، وهذا بدوره انعكس تنوعا لغويا في ارض الرافدين فتجد فيه اللغة السيرانية والمندائية والكردية والتركمانية والعربية [1]، وما زال التلاقحُ الثقافي نشطا في أرضه بفعل مركزه الديني ، إذ تستقطب النجف الأشرف طلبة علم من كافة أنحاء العالم مما يشكل بوتقة تنصهر فيها ثقافات عدة وهذا ألقى بظلاله على الواقع اللغوي للبلد وهذا المجال واسع شائك لا يستوعبه بحث بهذا القدر لذا سيقتصر البحث على تسليط الضوء على تعايش اللغتين العربية والكردية ، وهما تشكلان اللغتين الأكثر تداولا في الشارع العراقي بما تشكلان من ظواهر لغوية ، تعددية لغوية ، أو ازدواجية لغوية ، أما بقية اللغات فيكاد استعمالها ينحصر في الممارسات الدينية وتكمن أهمية البحث في أنه يعالج مشكلة لغوية تنعكس بصورة فعلية على المشهد الثقافي ، والسلم المجتمعي ، وعلى مسارح السياسة ، وحلها تتبعه حلول لتلك التوابع ، أمّا منهج البحث فيتوسل الباحث المنهج التاريخي ، وسيكون في ثلاثة مباحث : المبحث الأول يتعلق عن الوشائج بين اللسان والثقافة ،والثاني عن الثنائية اللغوية ، أما الثالث فخصص للتعدد اللغوي .

م. د .محمد سامي كاظم

العراق – وزارة التربية – مديرية تربية ذي قار

السبت 30/ 9/ 2023

المبحث الأول :اللسان نواة الثقافة

ثمة منظور يتناول اللغة بمعناها الواسع المتعدي الكلام شاملا الإشارات الجسدية ومنتجات الفنون الصناعية والجميلة ،وهي بذلك تحتل مكانة متقدمة في المحيط الثقافي ، لا بل هي عينها نظام ثقافي بحسب منظور جون ديوي من بين أنظمة عدة تسيطر اللغة عليها بوصفها الأداة التي تنتقل بها النظم كافة والعادات المكتسبة [2]. وبما أنَّها نظام ثقافي فتعدد ألسنتها يعني تعددا في النظم الثقافية ، وبذا فإنّ تعدد الألسن يعني رؤى متعددة للعالم [3].

تعددَتِ الأطيافُ الثقافيةُ في المجتمعِ العراقي ، وهذهِ الأطيافُ الثقافيةُ تمثلاتٌ لأطيافٍ لسانيةٍ على أرضِ الواقعِ لأنَّ العراقَ فيه ألسنٌ رسميةٌ عدّةٌ (كالعربية والكردية،و التركمانية والمندائية ، والآشورية) وإذا كانت الألسنُ منبعَ هذا الطيفِ ، فيمكن أن تكون اللغةُ هي عامل وحدتِنا ، بحسب رؤية إدغار موران " أننا توائمُ بواسطة اللغة ومتفرقون بواسطة الألسن"[4] ومن هنا سنبينُ الوشائج بين تعددِ الألسنِ والتنوع الثقافي في المجتمعِ العراقي ؛ لأنّ اللسان دعامة أساسية للثقافة ووعاء للهوية [5]، وأهمية اللغةِ في وحدة نوعنا ؛ لأنَّ " التاريخ اللغوي يظهر تأثيرات حقيقية أكثر للحركات الماضية والتغيرات في الشعوب تتخطى المزاعم العسكرية المعلنة لقادتها الذين يعينون أنفسهم في المناصب الرئاسية ، وهذه التأثيرات و التغييرات تكشف تداخلا خفيا في العلاقات الثقافية مع سياسات القوة والنزعة النفعية والاقتصادية "[6]

ولو أنعمنا النظر لوجدنا اللسان العربي قد استوعب امتزاجا تاريخيا فريدا من نوعه على مستوى مكونات الهوية الثقافية والحضارية ، ومن ثَمَّ فإن هوية لساننا العربي اكتنفت عناصر غيريّة عدة ، فقد جمع هذا اللسان على مرّ التاريخ بين العربي والكردي والأشوري والكلداني الأمازيغي والفرعوني [7] ،ويبدو أنَّ قوته هذه استمدها من أنّه لسان المسلمين الذين تتعدد قومياتهم معتزين بلغاتهم مؤدين عبادتهم باللسان العربي ، وهنا يتجلى بوضوح إنّ أسباب انتشار اللغات ليس مقصورا على صنيعة الساسة والجنود والبحارة ورجال الفعل وذوو المشاعر القوية ، إنما المصدر النهائي لنفوذ اللغات هو بعدها الثقافي والثقافة كلمة عامة تشمل كل شي من تشكيل يد الفأس إلى التصريحات الجماعية ، فضلا عن ذلك ثمة سبب مهم يتعلق باللغة نفسها ، إذ لنموذج بنيتها قيمة وجودية لبقائها [8]، وهذا بدوره يجعل " المجتمع اللغوي هو وحدة أكثر انتشارا من العرق أو النسب و الانتماء ،

فاللغة تتغير بسرعة أكبر من سرعة تغير سلسلة حمض الدنا " [9] وبذلك تكون المجموعات اللغوية هي الفاعل الحقيقي في تشكيل تاريخ العالم ،وهي الباقية عبر العصور أكثر من الأمراء تأثيرا ؛لأنَّ الناطقين بها يدركون بوعي ووضوح تامينِ أنّها رموز للهوية [10]،فاللغة أعمق من كونها وسيلة للتواصل ،إذ تثبت على أنها شاهد مميز على تنامي الفكر البشري وتتمثل مستودعا للكشوفات الحضارية ،وهي ذاكرة مزدوجة ببعدين: فردي وجماعي تنبني صروحا للشعوب ومرآة للفكر البشري[11] واللغة اليوم وفق رؤية رينان " حلت .. بصورة شبه كلية محل العرق في تصنيف المجموعات البشرية بل أنّ دلالة لفظ العرق نفسها تبدلت بفضل تضاؤل أهمية الرابط الدموي أمام روابط اللغة والدين والشرائع والتقاليد " [12] فها هي دول الوطن العربي بمجموعها بمختلف أعراق مواطنيه يتشتت عبر قارتين آسيا أفريقيا يفلق البحر بينهما ، لكنّه يتوحد تحت راية اللسان العربي ذلك اللسان المستوعب المختلف لغويا (كرديا ، آشوريا ، مندائيا ، امازيغيا) احتضانا وحدويا لتتمظهر اللغة عاملا وحدويا يبرم اتفاقات التشابه البشري عناصر أمن وطمأنينة فاللسان العربي هو لسان الدين الإسلامي وصاحب الدور الأبرز في عصور الإسلام الأولى ثم شاركته الألسن الإسلامية الأخرى في بناء الحضارة الإسلامية وصناعة ثقافتها [13] كالتركية والفارسية والامازيغية والكردية وهذه الألسن على اختلافها انصهرت في بوتقة واحدة وتمظهرت عاملا وحدويا اتجهت بوصلته لصناعة ثقافة إسلامية واحدة ؛ ولأنّ الألسن بطبيعتها تحدد المجتمعات وبذلك تقدم مجموعات مكتملة من الأبحاث أوضح من معظم الدراسات الاجتماعية التي ينبغي أن تُبنى عليها التحاليل المقارنة ، فلم يُعطَ اهتمام كاف لنمو المجتمعات اللغوية وتطورها وانهيارها خلال الزمن والضوء الذي يمكن أن تلقيه هذه كلها على أنواع المجتمع الذي كان ينطق بها " [14] ،وبذا نستطيع أن ننفذ عبر نافذة الألسن إلى ثقافة الشعوب فهي سجلات ثقافتها ..

المبحث الثاني : الثنائيةُ اللغويةُ :

الثنائية اللغوية عكسُ الأحاديةُ اللغويةُ ، وهي الوجودُ المشتركُ للغتين رسميتين في الدولةِ الواحدةِ [15]وهذا الوجودُ تحكمه وتنظمه قوانينٌ ضابطةٌ إيقاعَ تعايشِهما وتهدفُ هذهِ القوانينُ إلى الحيلولة دون الصراعِ اللغوي ، لكن هذا المصطلح يتسع عند مارتيني ،فهو يرى " أنَّ ثنائية اللغة مصطلح مغلوط غالبا ، ذلك إنَّ ازدواجية اللغة وثنائية اللغة .. تعني اثنين ، لكن ليس المقصود في

كثير من الحالات لسانين، بل ثلاثة أو أكثر ،وهذا مثلا هو حال الجزائر ،حيث يقوم بموازاة الثنائية الفرنسية العربية الرسمية تعايش لسانين ذوي استخدام يومي " [16] وهذه الرؤية تناسب واقع العراق اللغوي؛ لأنَّ العراقَ من البلدانِ التي تتعايشُ فيه ألسنٌ عدة (العربية ، والكردية ، والآشورية ، والتركمانية ، والمندائية)

واللغة المندائية هي لهجة طائفة العارفين المسيحية التي لا تزال موجودة في جنوب العراق ، وهي لهجة آرامية خالصة لم تتصل كلماتها وتراكيبها بالعبرية . [17] ،واثنتان منهما رسميتان هما اللغةُ العربيةُ واللغةُ الكرديةُ ؛ لذا سيعالج البحث تعايش هاتين اللغتين .

يسكن الكرد في إقليم كردستان العراق شمال العراق وهم بذلك يحاذون الكثير من المدن التي يقطنها العرب في الموصل وديالى وكركوك وصلاح الدين ، وبعد إن كانَ الصراعُ محتدًا بينهما على مدى عقودٍ من الزمنِ متمثلا في سياسةِ التعريبِ والتكريد بدأ في العراقِ حديثا التخطيطُ لتعايشٍ لغويٍ؛ لننفذَ من خلالهِ لتعايشٍ مجتمعي .

بدأ الصراع العربي الكردي بعد سقوط الدولة العثمانية آخر الإمبراطوريات الإسلامية التي تتعايش تحت لوائها آنذاك جميع القوميات في تلك البقاع ، ويتعايش العرب والكرد في شمال العراق تعايشا سلميا، فثمة روابط ثقافية ونسبية وتاريخية توشّج العلاقة بينهم [18]، لكنّ سقوط الدولة العثمانية دفع الحركات الكردية الناشئة مثل حركة الشيخ محمود الحفيد البرزنجي عام 1919م بالمطالبة من راسم الخريطة السياسية الحديثة بوضع خاص للكرد ، أعقب ذلك عمليات منهجية لتفكيك الشراكة بين المتعايشين الإسلاميين وتمثل ذلك في سعي الكرد لإبعاد كل ما يمت لأصول عربية من الثقافة الكردية والعمل على غربلة تلك العوالق العربية ، فثمة محاولات جادة لتنقية المعجم الكردي من الكلمات ذات الجذور العربية على غرار تلك المحاولات التي سعت لتنقية المعجمية العربية ، رافق ذلك صعود النزعة القومية العربية قابله ردة فعل معاكسة في الاتجاه تمثلت في صعود للنزعة القومية الكردية ، وكلا النزعتين تسعيان للتنقية من الترسبات والعوالق بعد ان كان التماهي الثقافي سمة التفاعل والتعايش في القرون المنصرمة تحت خيمة الإسلام الواحد وخدمة قضيته ، وهذا بدوره هدد بانحسار ظاهرة ما يسمى بـ (الكرد المستعربون) حسبما يطلق على النخب السياسية الكردية المنضوية تحت لواء الدولة الوطنية الناشئة في العراق الحديث أمثال بكر صدقي وغيره وبدأ الخطاب يتصاعد

حدة وصولا إلى المطالبة بـ (كردستان الكبرى) التي تشمل جنوب تركيا وشمال غرب إيران وشرق سوريا على غرار المشاريع الوحدوية التي سادت المنطقة بحسب استناد كل منها على عوامل تاريخية جغرافية ثقافية لغوية مشتركة ، وبذلك كانت القضية الكردية هي المسألة الإثنية الأكثر عصاينا على الحل التي واجهت الدولة العراقية [19].

بدأت حركة تعزيز مكانة اللغة الكردية بإصدار أول جريدة باللغة الكردية ، وكان مهد ولادتها مصر ، حيث تجمعات المثقفين والأدباء نأيا عن التضييق الذي عاشه الكرد في زمن عبد الحميد الثاني وبحثا عن متنفس إعلامي يضمن حرية التعبير عن القضايا الكردية ، وكانت تلك الجريدة بعنوان (كردستان) ، اهتمت بقضايا عديدة مثل التاريخ والأدب الكردي ، وأول إصدار لها عام 1898 م ، وقد نوهت مجلة الهلال المصرية بقلم رئيسها جرجي زيدان إلى ذلك الإصدار[20] . واخذ الاهتمام بالثقافة الكردية عموما واللغة الكردية خصوصا يتنامى في المراحل اللاحقة ، إذ عدَّ معروف جياووك (1884– 1958) السياسي الكردي اللغة عنصرا أساسيا في القومية الكردية ووسيلة عملية تسهم كثيرا في نيل الحكم الذاتي ؛ لذا أسهم في تأسيس الجمعية العلمية (زانيستي) في مدينة السليمانية ، واصدر كتيبين ينشر فيهما إملاء اللغة الكردية وأمثالها [21].

ومنذ تاسيس الدولة العراقية ودخولها عصبة الأمم المتحدة بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة كانت هنالك توصيات من اللجنة الأممية تفضي إلى احترام حقوق الأقليات الدينية والإثنية لكن ثمة من يرى أن الحكومات لم تلتزم بهذه التوصيات على الرغم من التقرير الذي قدمته الحكومة البريطانية أمام المجتمع الدولي الذي أفاد بالتزام الحكومة العراقية بكافة تعهداتها تجاه الكرد في تسويتها مشكلة ولاية الموصل [22].

آمن القوميون الكرد في مطلع العقد الثالث من القرن المنصرم بأنَّ اللغة الكردية هي المحرك الفاعل في الحفاظ على الهوية الكردية ، وهذا بحسبهم ردة فعل تقابل سياسة التعريب التي ضمنت في السياسة التعليمية المنهجية الرسمية التي وضع منهاجها ساطع الحصري منذ تولي الملك فيصل عرش العراق ، على الرغم من أن الحكومة العراقية وعلى لسان رئيس الحكومة نوري السعيد في عام 1930 م اعترفت باللغة الكردية لغة رسمية في المناطق الكردية ، وقد منح البريطانيون في بداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة بعض من المتعلمين الكرد مناصب إدارية ثانوية لأمور تتعلق باللغة

والإفادة من الخبرات [23].لكن الكرد شككوا في هذا الإعلان ورأوا أنه مغازلة للمجتمع الدولي الذي اشترط حماية حقوق الأقليات استعدادا لإنهاء الانتداب البريطاني ،و قد قلل الكرد من هذا الإعلان للأسباب التالية:

- لأن تعليم الكردية كان يقتصر على المرحلة الابتدائية ، وبمحدودية في بعض الأقضية والوحدات الإدارية ، وهذا يعني أن الكرد ينتشرون في بعض المناطق لا جميعها .
- إسناد تعليم اللغة الكردية إلى معلمين عرب وتركمان وآشوريين وكلدان ، وهؤلاء قد يعملون على تعريب اللغة الكردية بإدخال الكلمات العربية في مضامينها.
- حصر عملية كتابة المناهج في المركز تحت وصاية وزارة المعارف ،وفي هذا تعريب للأجيال الكردية [24].

وفي عام 1963 قدم البارتي مشروع الحكم الذاتي ،ومن أهم بنود المشروع أن لغته الرسمية هي اللغة الكردية ، وقد اعترفت الحكومة العراقية في عام 1966 م بان اللغة الكردية تعد لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية [25]، وتعد هذه الخطوة لبنة أساسية في الشروع إلى تخطيط لغوي يخفف من حدّة الصراع الدائر ، ويعطي الكرد رسائل اطمئنان بأنَّهم شريك في الوطن لا أقلية مضطهدة ، ويرسم خريطة طريق لتعايش لغوي مستقبلي يفضي إلى أمن مجتمعي ؛ لأنَّ " إن كل لغة تحدد هوية مجتمع ، فالناطقون بها يفهم بعضهم بعضا ، فاللغة تعمل لا كوسيلة اتصال بينهم ، بل فحسب كشعار لهويتهم المتميزة أيضا ، وكثيرا ما يسبب ذلك يأسا للحكومات الوطنية التي تحاول صيغة هوية وحيدة لكل مجتمعاتها اللغوية المختلفة ،وقد يكون لذلك تأثيرات معاكسة تماما " [26]

لكنَّ للظروف المحيطة كلمتها ، كـ" الهجرات ، ونمو السكان والتقنيات المتغيرة في التعليم والاتصال – كلها تحدث تحولات في ميزان الهويات اللغوية عبر العالم "[27] ، والعربية بالنسبة للكردية في العراق تكون الأولى لغة أغلبية ودين وتعامل يومي لان " العربية ... في المدى الطويل ، أثبت الإسلام أنه الدافع الأساسي لانتشارها ، ولكن الجيوش الناطقة بالعربية كانت هي التي نقلت لغتها بالفعل إلى آسيا الغربية وإفريقيا الشمالية ، وخلقت دولا دخلت إليها الدعوة الإسلامية بعد ذلك " [28] واستعمالها في تلك الطقوس الدينية وانتشار ألفاظها استعمالا في ألسنة الجند الفاتحين جعل ألفاظها تستوطن داخل الكثير من الألسن ، مما يمكن أن يشكل ميلا في ميزان القوى اللغوية ميلا تخافه

المجموعات اللغوية الناطقة بتلك الألسن ؛لانّ هذا الميل استعمارا لغويا ناعما ، و" قد يكون لنموذج اللغة قيمة وجودية لبقائها تقرر إن كان السكان الجدد الذين تكلموا بلغة أخرى زمنا طويلا مستعدين لالتقاطها أم لا " ويبدو لي أنّ العربية امتلكت تلك القيم الوجودية ، فهي لغة ثرية بالمفردات التي تستطيع أن تواكب بها مستحدثات العصر الحديث ، أضف إلى ذلك قابليتها التوليدية فهي لغة اشتقاقية تنمو وتتوالد الألفاظ فيها توالدا توسعيا من جذر واحد، زد على ذلك إنَّ الدولة التي تشهد تنوعا لغويا لا يمكن ان تلتزم الحياد اللغوي في علاقاتها مع مواطنيها لأنَّها تستعمل لغة معينة حين تخاطب مواطنيها ,وحتى وان فقدت الحيادية اللغوية في تعامل الدولة لا يمكن ترك الحبل على الغارب لان تدخلها ضروري جدا ،وبخلافه لو ترك الأمر للقرارات الفردية التي يتخذها المواطنون أدى ذلك لاندثار لغات الأقليات وثقافاتهم [29].

كل ذلك يجعل ميزان القوى تميل لصالح العربية المتجاورة مع غيرها من اللغات على الرغم من عملية التأثير والتأثر المتبادلة ، لكن مهما تتعزز مكانة اللغة الكردية في هذا الإطار الإقليمي العربي تبقى لغة محلية في الإقليم تعجز عن استيعاب الأسئلة الفلسفية الوجودية الكبرى ؛لذا تجد بعض الشعراء الكرد ينزاحون إلى اللغة العربية التي تضمن فضاء واسعا للتعبير عن تساؤلاتهم الفكرية ومشكلاتهم الثقافية والقانونية ، وهي بذلك مثلت الحاضنة الأبدية لاستنطاق تلك الأسئلة الفكرية والإبداعات الفكرية ومن هؤلاء الشاعران الكرديان الشاعر أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي والشاعر والروائي المعاصر سليم بركات[30]، ووسط هذا الصراع اللغوي الذي قد تتقدم فيه لغة على تراب لغة مجاورة لأسباب مختلفة ، أو يصبح المواطن يعيش حالة التعدد اللغوي يطرح سؤالا : كيف تتحقق العدالة اللغوية ؟ والإجابة عليه تطول ، لكن سنعمل على تسليط الضوء على بعض النظريات التي تضمن عدالة لغوية للغات مختلفة يمتلك ناصيتها مستعملوها في وطن واحد قد تختلف تضاريس حدوده اللغوية .

التعدد اللغوي والعدالة اللغوية

يزدهر العالم اليوم بالكثير من الألسن التي قد تتقارب أوطانها أو تبتعد وبفعل الصفة الاجتماعية للإنسان تحتك المجتمعات المتباينة الألسن ، وهذا الاحتكاك محكوم بظروف مختلفة قد تعلي لغة على حساب أخرى ، او تجعل الفرد يتحدث لغتين بفعل الظروف المحيطة .

وكل لسان له موطنه الأصلي، وإنّ بيئة اللسان الأولى وموطنه هي ألأرض أو التراب الذي تقطنه الجماعة اللغوية التي تستعمله ، فيسمي ذلك اللسان أشياء تلك الجماعة وأحداثها وكلما كانت البيئة اللغوية متجانسة تيسرت عملية تعلم الأطفال للغتهم الأولى والعكس الصحيح فكلما فقدت البيئة اللغوية التماسك الجماعي تعسرت عملية تعلم الأطفال للغتهم الأولى ، وقلّ توارثها وامتلاك ناصيتها عبر الأجيال المستقبلية ، واضطر لتعلم لغة أخرى غير لغته الأم ، أي أنَّ الشخصَ يصبح متحدثا بأكثر من لغةٍ واحدةٍ تتجاذبانه ؛ ولأنَّ التعددَ اللغوي كفيلٌ بالتنوع الثقافي وانفتاحِ الحوارِ الثقافي ، وهذا مشروطٌ في ضمانِ حقوقِ القومياتِ المتعايشةِ على الأرضِ الواحدةِ ضمانًا تُفضي إليه قوانينٌ مسنونةٌ تحمي هذهِ القومياتِ مهما تفاوتتْ نِسبُها السكانيّةُ من حيثُ العدد .

والتعددية اللغوية تتحقق بقيام نظام لغوي ترابي يعطي الأولوية للغات الوطنية التي ترتبط بأرضه ومبدأ شخصاني يحقق العدالة اللغوية [31].وهذا ينطبق على واقع بعض المناطق في العراق ، فبعض مناطقه تتمظهر فيها ظاهرة الازدواج اللغوي أي مناطق تقطنها جماعات يتحدث كلٌّ منها لسان يختلف عن اللسان الآخر ،وبعضها " لا يصح أن نتحدث فيها عن ثنائية أو ازدواجية لغوية ، فالمناطق الامازيغية في المغرب العربي والمناطق الكردية في المشرق العربي تتكلم أكثر من لسان : العربية الفصحى أو المعيارية والعامية العربية المستعملة في الاقليم أو الدولة والامازيغية أو الكردية " [32] ، وبتعبير أدق (بعض المناطق الكردية في المشرق) يتحدث ساكنوها لسانين العربي والكردي ، وليس كلها كما يرى الكاتب الحسين الزاوي .

فالأطفال يتعلمون لغة أسرهم وأقاربهم الأكبر منهم سنا من غير جهدا تقريبا شريطة أن تكون هنالك بيئة مستقرة حيث يتحدث المجتمع الذي يعيش في كنفه الطفل لغة واحدة ، أما اذا كان المجتمع يتحدث أكثر من لغة فيستعلم الطفل لغة هجينة معاد تركيبها متميزة عن اللغات التي يتقنها الكبار ؛[33] ولأنّ اللغات مختلفة في جاذبيتها وتسجيل حضورها في الأجيال قد يحصل ضيمٌ لغويٌ [34]

والضيم اللغوي يكمن في اللامساواة في الكرامة وحاصل الأمر ثمة مس بكرامة متكلم لغة ما وقت يكون التعامل مع لغته بمنظور دوني يجعل منها بمصاف لغة اقل شأنا من لغة أخرى يعليها حكم السياسة أو الاقتصاد ، او حين لايسمح لمتكلم تلك اللغة باستعمالها في محيطه وأرضه . [35]

و اللامساواة في الكرامة تنتج اللاعدالة اللغوية وهي " قلة احترام اللغات المهيمن عليها وناطيقها ، وتنزيل الشعوب التي ترتبط هوياتها بها منزلة دنيا " [36] وهنا تتفاقم المشكلة ،إذ يستلب مبدأ التساوي بين متكلمي اللغات حين يعلى قدر لغة على حساب لغة اخرى لها ناطوقوها على امتداد تراب الوطن الواحد [37].

فثمة وجود لآليتين أساسيتين متباينتين تدعمان بقاء اللغات أو تهددانه ، ويكون عملهما متعاكسا ، الأولى : تعمل من أعلى إلى أسفل ،وفيها تفرض الدولة لغة ما عبر التعليم القسري او الخدمة العسكرية الإجبارية ، أو بإجراءات تحقق إدماج المهاجرين بكثافة مما يعمل على التلاعب بالخريطة اللغوية وتوجيه مسارها باستمرار لاستيعاب مستعملي بعض اللغات المختلفة عن تلك اللغة التي تتبناها الدولة رسميا والعمل على إزاحة تلك اللغات الضعيفة لصالح اللغة الرسمية ، وهذه الالية تعرف بآلية (كلنر) [38].

أمّا الآلية الثانية فتتباين مع الأولى من حيث طبيعة العمل ، إذ تبدأ من الأسفل متجهة نحو الأعلى وتسمى قانون (لابونس) وتقوم على العلاقة العكسية التالية (كلما كان الناس كرماء كانت اللغات أقل كرما) وبسبب هذه العلاقة يتم تجنب تلاقي لغتين على أرض واحدة ؛ لان اللغات يضمن تعايشها لقرون مع عدم احتكاكها ، وبمجرد أن تحتك جموع السكان الناطقين بها عبر تبادل الحديث ، أو التجارة ، او المصاهرة ، او العمل ،او التساكن على ارض واحدة فإن اللغة الأضعف ينحسر وجودها لصالح اللغة الأقوى التي يسعى السكان لامتلاك ناصيتها تعزيزا لمكانتهم ،او توفيرا لفرص عمل أكثر وهذا النظام يقترب كثيرا من قانون ابن خلدون فاللغة بحسبه بالغلبة [39]

يجعل الكردية في موقع ضعيف ،يمكن للعربية التغلب على الكردية بحسب هذا القانون وذلك للاحتكاك المجتمعي الموجود في العراق المتمثل في السياحة في إقليم كردستان العراق، إذ يسافر أبناء المناطق الوسطى والجنوبية إلى إقليم كردستان العراق صيفا ، وهذا بدوره يتطلب من أصحاب المحال التجارية تعلم العربية لترويج تجارتهم وكذلك أصحاب الفنادق ، زيادة على ذلك فالعربية أقوى بحكم الممارسات الدينية المودآة بها ؛ ولان اللغة "أداةٌ للتواصل هناك هشاشة ملازمة للغة الأضعف لا تمتد إلى مكونات أخرى للثقافة مثل الممارسات الدينية أو عادات الطبخ "[40] ، ويمكن رفع الضيم اللغوي :

- عبر تفكيك أسطورة التفوق إذ لا يمكن الحكم بهيمنة لغة على لغة أخرى فطرية متداولة بدعوى تفوق الأولى تفوقا عقلانيا أو عبقريتها ، فليس هنالك داعٍ للاعتقاد بسيرورة البقاء للأصلح [41].
- بالمساواة الرمزية : وينطوي ضمن احترام كرامة المتكلمين التأكيد على تساوي اللغات المعترف بها في سياقات ذات دلالة رمزية قوية ، وقتها يصبح استعمال كل لغة من اللغات بمثابة رفع علم من الأعلام الوطنية [42]
- عبر الترابية اللغوية وهي أكثر هذه الوسائل مصداقية للتعبير عن الكرامة المتساوية ،وفيها تكون كل لغة مَلِكة في جزء من تراب الوطن ضامنة للمساواة وللهوية التي ترتبط بها امتيازا في حدود ذلك الجزء ، وتكون تلك اللغة هي التي تقارب الانفراد بالوظيفة العليا وتستعمل بوصفها لغة رسمية عند قاطني الكيان السياسي ، وهذا من شأنه يعزز إنبات العدالة اللغوية بكبحه دعوى التفوق المطلق ، ويمكن تحقيق هذا باعتماد تعلم كل مستقر في وحدة ترابية لغتها الرسمية ، وفي النظام اللغوي الترابي تفرض لغة واحدة على البلد أو اكثر من لغة واحدة في إقليم من البلد او البلد كله [43]لذا صار ضروريا " إقرار مشروعية الترابية اللغوية في كل المناطق ،بما فيها الدول العربية ؛ لأن العدالة اللغوية هامة في حد ذاتها ، سواء أُولت على أنها التعاون المنصف ، أو تساوي الفرص ،أو تساوي الكرامة "[44]

وأنعمنا النظر في إجراءات الحكومات العراقية للتخفيف من حدة الصراع ورفع الضيم اللغوي لوجدناها بحسب طبيعة الحكومات وأيدلوجياتها ، لكن دستور عام 2005م ، كفل الكثير من الحقوق اللغوية للأقليات انطلاقا من مبدأ المساواة في الحقوق ، فقد أكدت المادّة (4)– أولا– على أنَّ اللغتين العربية والكردية هما اللغتان الرسميتان هذا فضلا عن ضمان حق العراقيين من الأقليات بتعليم أبنائهم باللغة الأم مثل التركمانية والأرمنية والسريانية في المؤسسات التعليمية والحكومية .

ثانيا : يحدد نطاق المصطلح لغة رسمية ،وكيفية تطبيق أحكام هذه المادة بقانون يشمل :–

أ. إصدار الجريدة الرسمية باللغتين .

ب. لتكلم والمخاطبة والتعبير في المجالات الرسمية بأي من اللغتين .

ج. الاعتراف بالوثائق الرسمية والمراسلات باللغتين ،وإصدار الوثائق الرسمية بهما .

د. فتح المدارس باللغتين وفقا للضوابط التربوية .

هـ. أية مجالات أخرى يحتّمها مبدأ المساواة ،مثل الأوراق النقدية ،وجوازات السفر والطوابع.

ثالثا: تستعمل المؤسسات الاتحادية والمؤسسات الرسمية في إقليم كردستان اللغتين .

رابعا: اللغة التركمانية واللغة السريانية لغتان رسميتان أخريان في الوحدات الإدارية التي يشكلون كثافة سكانية .

خامسا: لكل محافظة أو إقليم اتخاذ أية لغة محلية أخرى لغة رسمية أضافية إذا قررت غالبية سكانها ذلك باستفتاء عام .

نجد أن مبدأ المساواة الرمزية قد تحققّ في المادّة الرابعة – (أولا) من الدستور العراقي وكذلك في (ثانيا) فقرة (ج) و (هـ) ، وكذلك مبدأ الترابية اللغوية تحققّ في المادّة (4) (رابعا) وهذا المنح للحقوق اللغوية لفسيفساء الشعب العراقي ذوّب كثيرا من الجبال الجليدية بين مكونات الشعب الواحد ، وأسس لتنوع لغوي متعايش يفتح آفاقا لتنوع ثقافي متعايش يرتقُ ممرات التمزق، وأنَّ " الوحدة في التنوع هي أعلى مرتبة في الحضارة وشهادة على أنبل الإمكانات للعنصر البشري ، وإن هذا الانجاز يصير ممكنا عبر الانتقال المتحمس للاختيار في جو من الثقة الاجتماعية ،وان الوحدة في التنوع مفهوم يعني الوحدة دون التماثل والتنوع دون التمزق " [45]

الخلاصة والتوصيات:

1. نشبت الصراعات اللغوية في العراق بعد أن سقطت الدولة العثمانية التي كانت ترفع الإسلام راية وحدوية لحكمها ، فكانت الألسن المتعددة تتجه نحو بوصلة واحدة ذابت في بوتقتها جميع الأعراق ، وبدأت الأيدلوجيات المشكلة للمشهد السياسي الجديد تطفو على السطح قومياتٍ متعددةٍ تتحقق هوياتها المتجاورة المتصارعة بالألسن ، مما شكّل منعطفا خطيرا في طبيعة العلاقات التي تحكم تلك المجتمعات قد وصلت حدَّ الاقتتال .
2. التعايشُ اللغوي ضرورةٌ في المجتمعاتِ التي تتعددُ فيها القومياتُ ؛ لأنَّه يفضي إلى تعايش ثقافي ، وهذا التعايشُ مرهونٌ بالتخطيط اللغوي ، وقد لُمسَتْ بوادر هذا التعايشَ في العراقِ بعد أن كانَ تصارعًا محتدًا ، لكنَّه في بدايةِ مشوارِهِ ويحتاجُ إلى التدعيمِ.
3. صار ضروريا أن يأخذَ التخطيطُ اللغويُ زمام المبادرةِ في توفيرِ تعايشٍ لغوي يحفظُ للمكوناتِ المتنوعةِ في المجتمعِ هويتها الثقافيةِ .
4. بعض المناطق في كردستان العراق تظهر فيها تعددية لسانية يتحدث أهلها لسانين بحسب مقتضيات المصلحة ،وبعض مناطق العراق تظهر فيها الازدواجية اللغوية كل مجموعة تتحدث لسان يختلف عن اللسان الآخر .
5. أوصي بأن بالاطلاع على التجربة المغربية والإفادة منها في معالجة القضايا اللغوية المعقدة ؛لأنّ واقعنا اللغوي العراقي يقترب من الواقع المغربي .
6. أوصي بأن تبدأ الحلول على الأرض بحلول لغوية ،وذلك بالاستعانة بخبراء لسانين يقدمون تخطيطا لغويا يمهد الأرضية لحلول ثقافية سياسية .

الحواشي

(1) ينظر : المناطق المتنازع عليها في ضوء تقرير الأمم المتحدة ، مجلة القانون والسياسة ،وقائع المؤتمر الدولي الثالث :758 .

(2) ينظر : اللسانيات والعلاقات الدولية: 27 .

(3) ينظر : الهويّة وفلسفة اللغة العربية :44 .

(4)الهويّة وفلسفة اللغة العربية :27 .

(5) ينظر : اللسان العربي والاحتلال : 133 .

(6) امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 41 .

(7) ينظر : الهوية وفلسفة اللغة العربية :105

(8) ينظر : امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 50-55 .

(9) امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 36 .

(10) ينظر: امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 20 .

(11) ينظر: لغات الفردوس : 36.

(12) الهوية وفلسفة اللغة العربية :90-91

(13) ينظر : اللسان العربي والاحتلال دراسات /2: 235.

(14) امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 22 .

(15) ينظر : وظيف الالسن وديناميتها : 222 .

(16) وظيف الالسن وديناميتها : 222 ، وينظر :حرب اللغات والسياسة : 80 ،والهوية وفلسفة اللغة العربية:135

(17) ينظر : التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق :12-13، 63 ،و فصول في فقه اللغة العربية : 33 .

(18) ينظر : التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق :11 .

(19) ينظر : العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات 11-12 .

(20) ينظر : العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات 42-46 .

(21) ينظر : العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات 73 .

(22)ينظر :العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات : 80.

(23)ينظر :العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات : 70.

(24)ينظر :العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات : 80- 82.

(25)ينظر :العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات : 170.

(26) امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 41 .

(27) امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم : 46 .

(28) ينظر : امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم :53.

(29)ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 82 –83.

(30)ينظر :العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات : 349–350، وهوية كركوك الثقافية :110.

(31) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 48.

(32) الهوية وفلسفة اللغة العربية :134

(33) ينظر : إمبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم :55.

(34) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 21.

(35) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 23.

(36) العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 25.

(37) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 25.

(38) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 32.

(39) ينظر : مقدمة العلامة ابن خلدون : 344–348، والعدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 32 .

(40)العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 33.

(41) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 26.

(42) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 27.

(43) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 29 – 31.

(44)العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 36.

(45) ينظر : العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط : 38.

المصادر

- امبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم ، نيقولاس أوستلر ، ت د. محمد توفيق ، دار الكتاب العربي – بيروت 2011.
- التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، معهد البحوث والدراسات ، 1968م
- ضعف المناعة اللغوية والهوية المرتعشة في المجتمعات المغربية ، د. محمد الذوادي ، ابن النديم للنشر والتوزيع .
- العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط ، عبد القادر الفاسي الفهري ، دار كنوز المعرفة ،ط1 2019م.

- العرب والكرد المصالح والمخاوف والمشتركات ، تحرير مروان قبلان ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ،ط1 ، 2009م.
- اللسان العربي والاحتلال ، تنسيق مصطفى العادل ولحسن عيا ، ركاز للنشر والتوزيع ، الاردن 2021م
- اللسانيات والعلاقات الدولية ، تنسيق ادريس مقبول – عبد السلام اسماعيلي علوي ،ركاز للنشر والتوزيع .
- لغات الفردوس، موريس اولندر ، ت د.جورج سليمان ، المنظمة العربية للترجمة ،
- فصول في فقه العربية ، رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي _ القاهرة .
- مقدمة العلامة ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن خلدون ، تحقيق الاستاذ حجر عاصي ،دار ومكتبة الهلال ، بيروت ،1988م
- هوية كركوك الثقافية والادارية ، محمد علي القره داغي ،منشورات آراس ،ط2، اربيل 2007م.
- الهوية وفلسفة اللغة العربية، الحسين الزاوي ، منتدى المعارف ، ط1 بيروت ، 2004.
- وظيفة الألسن وديناميتها ، اندريه مارتيني ، ت نادر سراج ، المنظمة العربية للترجمة ، ط1 2009م